- ليس هيناً على الانسان أن يظل حبيس داره، تسعة أيام، بلاطعام ولا شراب.

خاطب ئاسۆس نفسه هامساً، مصدقاً كلام أمه:

- حقاً... تسعة أيام ليست بالمدة القليلة...

تسعة أيام مرت على القرية، واللعنه الجرادية التي حلت بها، ماتزال جاثمة على صدرها. تملأ فجاجها تحرق خضرتها... تغتال إبتسامتها... تقتل فرحها تمنع فجرها من الاشراق... يحجز عنها شمسها...

تذكر ذلك الصباح الأسود، أو الذي أسودّ فيما بعد، حين توجه الى مدرسته في "كلاوقوت"، وهي قرية تبعد عن قريته "تومار" قرابة نصف ساعة مشياً على الأقدام. تذكر إنه شاهد جرادة أو إثنتين... ولكن لم يعرهما إهتماماً. فقد كثر في الأيام الأخيرة حديث بعض الفلاحين عن الجراد، وإن كان قد إستغرب ظهورهُ في هذا الشتاء القارس. بالذات.

تابع سيره، محتمياً بمعطفه من البرد ومن قطرات المطر التي أخذت تنث. هازّاً رأسه... متمتماً...

- العراق بلد العجائب... لقد غدا بلداً للعجائب والغرائب.

غير أنه لم يسر سوى بضع خطوات حتى حطت جرادة أخرى، كبيرة الحجم. على ذراعه، دفعها عن نفسه... بتقزز وإشمئزاز... ولكنها لم تطر بعيداً، بل عادت وارتطمت هذه المرة بوجهه، بشدة، آلمته. فضربها بباطن كفه بقوة، وفي اللحظة نفسها إرتطمت واحدة أخرى بقمة رأسه المدفون نصفها في ياقة معطفه. وإلتصقّت ثالثة على خده الأيسر، مدّ نحوها بحذر شديد يده، ليمسك بها ويسحقها تحت قدمه. بيد انه فوجيء بأخرى تحط على كفه... وكما لو كان بينهن إتفاق غير معلن. بدأن العض في وقت واحد. تفجر فيه ألم شديد. فحرك رأسه بعنف... وقوة... أعنف وأقوى مايستطيع، لعله يتخلص من الجرادة التي أنشبت أرجلها المنشارية... بل وحطت واحدة على عينه اليمنى وثانية على عينه اليسرى وثالثه على أرنبة آنفه، المتجمدة من البرد. وأدرك إنه قد سقط في شباك الجراد، بصورة لايستطيع منها فكاكاً. وهم أن يستعين ببعض المارة القلائل، وهنا فقط إكتشف أن الجراد قد أحاط بالكل. وإستحل الجميع،

بعضهم يقاوم بضراوه، وبعضهم يهرب. وآخرون يدفنون وجوههم في أحضانهم ويصرخون من الآلام والأوجاع.

- يا إلهي... ماهذا الذي يجري... هل أنا أحلم...

تساءل بينه وبين نفسه بمرارة. وعلا صوت مشروخ:

- إخوتي... يا إخوتي... عودوا الى بيوتكم... الجراد لايكف عنا إذا لم نعُد الى بيوتنا... ونغلق علينا الأبواب.

وإرتفعت أصوات أخرى، من هنا وهناك، أصوات باكية... مبلولة بالدموع، مثخنة بالجراح...

- صحيح ... والله... صحيح... آه... آه...

- الجراد أقوى منا... الجراد أشرس منا...

وجد ïÝÜz " نفسه إزاء هذه الأصوات يصرخ:

- بل قاوموا... أيها الأخوة... قاوموا...

صاح آخر...

- لاأمل في المقاومة... لقد إحتل الجراد منطقة شوان... بأكملها... يا أستاذ.

- عار علينا... أن يهزمنا الجراد... قاوموا... قاوموا.

قال ذلك وهو لايَني يضرب الجراد، بالكتاب الذي يحمله ذات اليمين والشمال، وهو يسحق بكلتا قدميه ما يتساقط منه على الأرض ويفترس بأسنانه... مايقتحم فاه...

بعضهم إذ رأوا صراعه العنيد... راحوا يقتدون به... لفترة غير قليلة... إستمرت الحرب بينهم وبين الجراد، تساقط خلالها جراد كثير... سكن الجميع ايمان بأنهم سيهزمون الجراد وينتصرون عليه... لولا أن اسراباً هائله... إنطلقت من مكان ما... وأخذت تهجم على حين غرّة بوحشية؛ فاقت كل وحشية. مركزة هجومها على الوجه والرأس، ناشبة أرجلها المنشارية في العينين.

سالت الدماء من عينه... نزع عنه معطفه... وراح يضرب به بضراوة.

لم يدر كم مِن الوقت مرّ عليه وهو في حربه الشرسة الضروس مع هذه الحشرات... حتى إنتبه الى نفسه انه قد بات وحيداً منهكاً... يكاد يتساقط

على نفسه... بلا حول ولا قوة... وفكر... لابد من العودة الى البيت... والاستعانة بالمبيد الذي يخفه في درج المكتب. وشرع يتراجع فعلاً... وفي تراجعه يتعثر ببعض الجثث البشرية المبثوثة هنا وهناك. دون أن يعرف أو يتعرف على أصحابها... بسبب الدماء التي غطت عينيه...

لو... لو... أصل البيت... آه... لابد... أن أصل البيت. لابد... لابد... لابد...

وفي البيت... صعق تماماً... حين أخبرته امه...

- المختار... مختار القرية أخذ المبيد.
- كيف؟... متى... متى...
- هذا الصباح... حين كنت ما تزال نائماً...
- ما بك... ياولدي... هل أنت مريض...

سألته امه... بقلق.

لم يُجبها، كان ذهنه. بل كيانه كله، شغولاً بامر واحد. مملئاً به حد الفيض.

- لو لم ينهب ذلك الخنزير المبيد... آه... آه...
- لو... لم... ما أدراني، على أية حال... بما سيحدث...
- هو كان يدري... لابد إنه كان يدري...
- كيف؟ انىّ له أن يدري، كل شيء قد حدث فجأة... كانه إنبثق من العدم.
- لاشيء يحدث فجأة، لا شيء ينبثق من العدم... كان نطفة... كان جنيناً قذراً... يتكون ينمو في رحم الأيام السود، يغذيّه الواقع المرّ... حتى إذا إكتمل في الخفاء... في خفية من العين والعقل... خرج الى الوجود بوحشيته... ووجهه... البشع... المفترس...

لم تُحر الأم جواباً... لم تعرف ماذا تقول... هو الآخر صمت... وراح يرقب موجات الجراد التي لاتتوقف... بل لاتخفت.

إنتبه الى وقع أقدام روناك وهي تنزل درجات السلّم... فبادرها:

- أما يزال النهر يجرف الجثث؟

أجابت أخته، ونبرات صوتها تنم عن دهشة مكينة:

- توقف.

تساءل ïÝÚz " بدهشة أكبر:

- توقف؟ توقف النهر عن الجريان؟
- هل يمكن؟ كيف؟

تساءلت الأم بحيرة.

- لقد امتلأ بالجثث... حتى سالت على ضفتيه...
- الجثث؟ اللّهم رحمتك... يارب أعنّا... الجثث سالت على... على...

قالت روناك، مسحورة، كالغائبة عن الوعي:

- ولكنها لم تعد... جثثاً.
- لم تعد جثثاً...؟

سأل ïÝÚz " بإهتمام خاص، قافزاً نحوها:

- ربّي عونك... ماذا يمكن أن تصبح الجثث إذا لم تعد كذلك.

سألت الام بخوف متصاعد.

- إنها اشبه... بـ... بـ... اعمدة من النور... تتصاعد الى السماء.
- ويحي... لقد... جُنّت... جُنّت إبنتي الوحيدة من شدة إدامتها التطلع جثث الموتى...
- صدقيني يا أمي... تعالى ...أنظري بنفسك.
- لا... لا... أقوى... النظر الى الموتى...
- ليسوا... موتى... يا أمي... صدقيني... ليسوا... موتى... لو ترينهم كم يبدون جميلين...
- جميلين؟ مَنْ...؟ الموتى؟

توجهت نحو أخيها الذي ظل واجماً... صامتاً:

- ïÝÚz... لماذا لاتقول شيئاً.
- ها؟... ماذا... ماذا اقول.
- هل الإنسان... يغدو... أجمل حين يموت...

فكر ïÝÚz " قبلما يجيب. بعد صمت غير قصير:

- ربما... ولكن ليس كل الناس... وليس في كل الظروف... وظل يردد... أجل

ليس كلّ الناس... ولا في كلّ الظروف.

إستفسرت الأم:

– ماذا تعني...؟

بينما قالت روناك...

– إذن لابد أن يكونوا أناساً عظماء... ماتوا في ظروف غاية في النبل والشجاعة... فأحاطت بهم... هالات من النور الوهّاج.

سألها أخوها:

– أيمكن التعرف عليهم؟

– بكل سهوله ويسر... كل جثة تكاد تصيح... تصرخ... أنا فلانة بنت فلان أنا فلان إبن فلان... أنا فلان الفلاني... لقد تعرفت على معظم أصدقائك من الفلاحين وعمال المزرعة... حتى بعض تلامذتك الصغار... آه... لو رأيتهم... تمنيت أن تكون واحداً منهم.

نهرتها امها بشدة:

– إخرسي... يا بنت... قطع الله... لسانك.

– يا أمي... إنهم ملائكة... كلهم ملائكة،... آه... ما هذا؟ آه... ما أبشع هذا؟

– ماذا هناك؟ ماذا...

سألها أخوها بإضطراب شديد:

– هـ... هـ... هناك... أنظرا... هناك...

وتعلقت نظراتهما بإصبعها... وهي تشير الى الخارج... عبر النافذة وقد إنعقد لسانها... إشارات خرساء.

– آه... يا للبشاعة!!

صرخت... الأم هي تهمّ بإسدال ستارة النافذة.

– لا... لا... لنرى من هو...

– من هو؟... ألم تعرفه... إنه... المدير... مدير الناحية...

قالت روناك...

– كيف رضي أن يُمسخ على هذا النحو... كيف؟

– رضي؟ وهل يرضى إنسان أن يستحيل جراداً...

– الأولى أن تقولي أية قوة حيوانية طائشة، تلك التي شوّهته على هذا النحو.

قالت روناك بإضطراب:

– أيّاً كان... أيّاً كان... لو مات... لكان خيراً له ألف مرة... لكان قد غدا نوراً... مثل الآخرين الذين يرقدون في النهر... أمي... ïÝÜz " ...

وتساءل كلاهما بصوت واحد:

– ماذا... ماذا... ياروناك...

– سيروان...

قاطعتها أمها... بقلق شديد...

– سيروان؟ خطيبك... ماذا به... هل رأيته بين الراقدين في النهر.

– لا... وذلك... مايقلقني...

– يقلقك؟ ماذا تقصدين...

– أخشى أن يكون قد...

– لا... لا... لاتسيء الى إبن خالتك.

– ارجو أن لايسيء هو الى نفسه.

كان ïÝÜzï " يرنو والألم يمزقه، الى السيد المدير... وقد إستحال جراداً ضخماً... وهو يسير وسط مجموعة من الجراد... تتطاير حوله تحفّ به، في طرب وهرج... كأنها تزفُّ عروساً.

– لا... لا... الموت، بالرغم من كل ما فيه من قوة، أهون... وأرحم...

– وأشرف... وأنبل... يا أخي...

قالت ذلك وألقت بنفسها عليه تحتضنه... تقبّله وتتمسح به...

– لاتكن جراداً، مُتْ... ولا تكن جراداً... لاتدع أيّاً منا يصبح جراداً، لنَمُتْ... لنَمُتْ كلنا...

قاطعتها أمها بغضب:

– ماالذي جرى لك... هل جُننتِ؟

ظلت تطوّقه... وتهزّه...

- عِدني... يا أخي... عِدني...

قال ïÝÚ " والمرارة تعصر روحه... والخوف من المجهول... غيمة سوداء تطوق الفضاء...

- إطمئني يا أختي... إطمئني... سأجاهد بكل ما أملك من طاقة أن...

وعلا طرق شديد لحوح على الباب. صرخت الأم برعب...

- هجم علينا الجراد...
- المدير... المدير... قادهم إلينا...

وإزاء تواصل الطرق واشتداده... هجم ïÝÚ " ... على الباب.

فأمسكت به كلتا المرأتين...

- لا. لاتفتح الباب.
- مَنْ؟ مَنْ؟
- أنا... أنا...

وبدا الصوت مألوفاً بالرغم من غرابته. ومع هذا سأل:

- مَن انت؟ مَن تكون؟
- أنا... أنا... سيروان...
- سيروان؟

وقفزت روناك نحو الباب بلهفة وشوق للقاء خطيبها. بينما توجه ئاسۆس نحو السلم صاعداً الى الطابق الثاني... مدفوعاً بأمل اللقاء مع أصحابه وأحبته الذين يجرفهم النهر، أعمدةً من النور...

لم تكد روناك تفتح الباب حتى إرتدّت مصعوقه.

- لا... لا... آه...

وأغلقت الباب بوجهه بعنف... مما حدا بإمها أن تهرع نحو الباب تفتحه:

- لماذا؟ لماذا تغلقين الباب بوجه خطيبك؟ هل فقدت بقية عقلك؟

وإذ فتحت الام الباب ثانية، تراجعت بهلع...

- ربي عونك! ماهذا؟... مَنْ أنت... مَنْ تكون؟

ومرق سيروان وقد إستحال جراداً:

- خالتي... أنا... أنا... سيروان... آه... لا... لاتغلقي الباب... دعيني أشرح لك...آه... روناك... روناك حبيبتي... أرجوك إسمعيني لاتشيحي بوجهك عني... إسمعيني حسب... ثم... ثم.
- لا... لا... أخرج... أخرج... لاتدنّس بيتنا...

تعلّق سيروان... بالأم... توجّه نحوها... بكلّه...

- آه... خالتي... أمي... أرجوك... ليس لي سواكم... أحده ألوذ به لاتطردوني... لا تنبذوني... لاتكونوا أشدّ قسوة من هذه الحشرات التي إستباحت الإنسان والكون...

وجدت الأم نفسها تقول، ربما دون إرادة أو تصميم:

- لا... لا... ولكن...
- آه... أمي... أمي... أزحف على جبيني... نحو قلبك الكبير... فلا تغلقي باب... رحمتك الواسعة دوني...

صاحت روناك متقززة...

- ماالذي تقول... من أين تعلمت هذه اللغة المتحذلقة المنافقة.

تماسكت الأم. خاطبت أبنها:

- دعيه يابني... دعيه... نسمع... ماجرى له...

وكسيارة اسعاف تحمل محتضراً يوشك أن يموت... سُمح لها بالإجتياز إنطلق سيروان، وهو لايصدق الفرصة الذهبية التي هبطت عليه حين غرة من السماء.

- ماجرى لي فظيع... ماجرى شنيع... شيء... لاإنساني... لاحيواني لا أدري ماذا أسميه... لا أعرف ماذا أدعوه...

أفقت صباح اليوم المشؤوم... في ساعة متأخرة بعض الشيء... فوجدت حقل القمح الذي رفعت اعشابه الطرية الخضراء رؤوسها قبل أيام حسب يغطيه الجراد، فجُنَّ جنوني... فرحت اضرب ماأضرب وأسحق ماأسحق ولكن العدد كان أكبر من ان أقوى على سحقه كله... وكان في تزايد مستمر فرجعت الى كوخي... أبحث عن المبيد... ولكن عبثاً... إذ تذكرت

بأن مختار القرية، لعنه الله، كان قد طلبه مني قبل يومين...

- المختار... المختار... أيضاً...

- وكان الأفدح أن الجراد قد أحاط بالكوخ من بابه وفتحاته... يهم بإقتحامه والهجوم عليَّ... فأغلقت الباب والفتحات بما تيسّر عندي من ملابس وخرق... ولكنها أخذت تنفذ من السقف من الجدران... من تحت الأرض... وهي تنهش لحمي... تغرز أرجلها في عظامي... حتى خارت قواي... وفحيحها الأشبه بفحيح الأفعى... يملأ آذاني وكياني رصاصاً مصهوراً... ولا أدري - كيف بات يتشكل في أذني. كأمر... كصوت... غير واضح النبرات...

- أمر؟ صوت؟...

- قُلْ... إني جراد... قل أنا جراد... وأبيت... ولكن وجدت نفسي في النهاية... جراء الآلام التي غرزتني والدماء التي راحت تنزف من كل مكان من جسمي... أقول... بوهن... أنا... أ...نا... جـ...راد... وإذ ذاك... فقط كفّ عني الجراد...

- كيفّ؟

تساءلت روناك بمرارة... ثم أضافت...

- الجراد لايفترس الجراد... ولو الى حين...

- الى حين؟ أتقصدين أنه سيعاود الهجوم عليَّ... لا... لا... هذه المرة... سأموت... سأنهار... لن أقوى حتى على النظر إليه...

- وما جدوى موتك الآن... آه... ليتك قد مُتَّ... قبلما...

وإهتزّ البيت كله إذ ارتطمت به عاصفة عنيفة من الجراد، نزل ïÝÙz " على إثرها... مرغماً يطوي درجات السلّم طياً...

صرخ سيروان... متوسلاً:

- لا... لاجدوى... أرجوكم... لاتجعلوا الجراد يستشيط غضباً.

- ماهذا؟ من هذا؟... أنت... أنت... أخرج... أخرج حالاً... قبلما أقضى عليك.

وإختفى خلف الأم... التي وقفت حائلة بينهما...

- دعه ياولدي... لقد إحتمى بنا... لاأحد له سوانا...

وهزّت موجة أخرى... عاتية من الجراد... البيت مرة أخرى...

- ويحي... سينهار البيت فوق رؤوسنا...

أخذت ذرات من التراب تتساقط من السقف وشرعت الحيطان تتشقق... وتهشم زجاج النافذة الوحيدة... فإندفعت عبرها... مجموعة من الجراد... راح كل منهم... يدفعها... عنه... بما وقع بيديه... من الأواني والصحون والكتب والدفاتر... والكراسي... عدا سيروان... الذي قبع في ركن من الغرفة مسحوقاً... لا يقوى على النظر الى الصراع الذي إحتدم وإصطبغ بالدم بين الإنسان والجراد...

صرخت الأم بوهن:

- أ... أعيينوني... أنجدوني... إني... انهار... إني... أ... ...

- أسرع الى أمك... أنا أستطيع حماية نفسي...

صاحت روناك... بأخيها... الذي كان مغلولاً بالجراد... من كل جانب... وراح يبذل المستحيل في أن يثغر في جدار ثغرة ينفذ منها الى أمه... التي شرعت تئنُّ وهي تتهالك على نفسها... أمسك بها سيروان وهو يهمس بأذنها في إلحاح غريب... بصوت مبحوح:

- قولي... أنا... جراد... قولي أنا... جراد... يكفُّ عنكِ في الحال.

رفسه ئاسڈس بقوة... وهو يقول...

- لا... يا أمي... لا... أرجوك... أرجوك...

إنقلب سيروان على وجهه... وعاد ثانية يتشبث بالأم...

- هيا... يا أمي... هيا... هيا... ارجوك... قوليها... قوليها... قبل فوات الآوان...

كان الدم ينزف منها بغزارة... تساقطت على بعضها... مثل كيس أُفرغ من الهواء...

- أنا... أنا... مـ...اء... مـ...اء

وصرخ ïÝÙz " ... صرخة هائلة...

- آه... لقد قتلتم... أمي... قتلتم أمي...

وندّت من روناك صرخة... ضعيفة...

- و... داعاً... ïÝlz... حبيبي... ود...

- روناك...

وقفز نحوها... كانت مثخنة بالجراح... متكورة على نفسها...

- لم... أقلها... و... لن... لن... أقو...لها... و...دا...عاً...

وإنطلق ïÝlz " بقوة جنونية... من النافذة... وهو يصرخ...

- لن أكون... جراداً... لن أكون جراداً...

جثم سيروان على رأس روناك... وراح يبكي وينشج.

- آه... آه...

كان صوت ïÝlz " ... يدوّي، وحده، كأنه آتٍ من كل الجهات :

- لن أكون جراداً... لن أكون جراداً...

ثم لم يلبث أن إستحال الصوت المنفرد الآتي من كل الجهات... أصواتاً... جماعية... هادرة... منبثقة من كل مكان...

- لن نكون جراداً... لن نكون جراداً...

خانقين ١٩٦٨

الشمس... الشمس

حين عاد الشرطي عربيد حسن الى منزله، بعد غيبة ثمانية أيام طوال، من شهر آب ذي الشمس الحارقة التي تحرق المسمار في الباب، وبلياليه الفائضة بالقيض والبق والذباب كان قد غدا خرقة مبللة، متهالكة على بعضها، من شدة الإعياء، بلا حول ولا قوة، التعب يسيل من أوصاله مع العرق الزنخ الذي ترشح به مسامات جلده الأسمر، شديد السمرة، حتى إنه لم يجب على عذابات زوجته، الصبية الحسناء، ومعاناتها طيلة هذه المدة بأكثر من:

- كنا في مأمورية.

- لو... لو أخبرتني... أو... أو بعثت من يطمئنني عليك... كدت أموت من القلق والخوف...

قاطعها وهو يتثاءب بكلمات ممطوطة... يقطعها النعاس:

- كانت... مأ...مورية... خا...صة... أأي ي ي ي...

وأضاف مسرعاً قبلما يتيح لها فرصة للإستفسار عن طبيعة هذه المأمورية... وخصوصيتها الخاصة جداً:

- هاتي ماعندك... الجوع يقتلني.

بين تردد وإستغراب تساءلت الزوجة:

- ألا... ألا تغير ملابسك... تصب بعض الماء... على جسمك...؟

إحتدَّ:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أقول لها الجوع يقتلني... تقول لي... كذا... وكذا...

أجابت بإعتذار مشوب بقلة حيلة...

- فقط... فقط... ريثما اهيىء لك... ما تأكله...

– أما في البيت شيء يؤكل؟ أي شيء؟ حفنة تمر؟ رأس بصل؟ كسرة خبز؟
– بلى... بلى... وي!! كيف؟ هل يمكن؟... معقول؟

وإنصرفت في عجلة الى تلبية طلب زوجها... وهي... تردد:

– الآن... الآن... حالاً... ثوان حسب... ثوان.

ولم يكد ينتهي من تناول طعامه، حتى أخذت معدته تثقل عليه، وإحساس بالخمول، أشبه بالخدر، شرع يسرى في أوصاله.

أغمض عينيه وفتحهما. فتح فاه وأغلقه، بضع مرات، وهو يتثاءب، قبلما يُفرغ في جوفه الملتهب، الممتلىء بالبصل الحار، والتمر، دورق اللبن الكبير، دفعةً واحدة.

نهضت زوجته، وبالرغم من انه لم يلحظ ذلك، إذ لم يكن حافلاً بها في هذه اللحظة بالذات فقد إرتأت أن تقدم له تفسيراً لقيامها:

– أعدّ لك الشاي!
– لا. لا أريد. أو... أو... وووو...

وأضاف بينه وبين نفسه، متمتماً، بقناعة عميقة ورضا تام:

– الحمد لله...!!

مطّ شفتيه، تثاءب مرة أخرى، وبضع مرات أخر، وهو يتحامل على نفسه، ناهضاً، متوجهاً نحو السلم المؤدي الى سطح الدار. تساءلت زوجته بدهشة شديدة:

– أين؟

تطلع نحوها... بعينين... أثقلهما النعاس... ولا يكاد يسمح لهما بالإنفتاح:

– في الصباح... يتوجب عليّ أن أقدم لهم... تقريري.
– و... و... ولكن...
– لابدّ أن أرتاح. أنام. لقد أنهكني الأوغاد الى حد الموت.

وقرص خدها برقة، مما شجعها أن تجرؤ وتسأل بإستنكار:

– تنام؟ في عزّ الظهر؟
– عزّ الظهر؟ لقد غربت الشمس... يا حرمة. ماذا جرى لعقلك؟

تراجعت. وراحت تتلمس لنفسها عذراً، لما بدا لها أن زوجها حسبه تطاولاً عليه. وعلى حقوقه المشروعة، الأمر الذي بات يحذّرها منه، على الدوام. ولا سيما هذه الأيام بصورة خاصة:

– أ... أ... قصد... السطح حار. مازال حاراً... لم أرشّه بعد... لو... لو تجلس معي بعض الوقت نتحدث... قليلاً... و...
– تعبان... تعبان جداً.

قالها بضجرٍ شديد، وحسم نهائي... وتابع سيره نحو السلم...

دفنت الزوجة فشلها وإرتباكها في ذلّة، أخذت تعتادها في الأيام الأخيرة. وراحت تتبعه بمسكنة ظاهرة، وإذ أحسَّ بها خلفه. توقف. إلتفت نحوها تساءل بإستياء:

– ماذا هناك؟
– أفرش لك المنام.
– أفرشه بنفسي.

أجاب بإقتضاب، وواصل سيره مترنحاً... كالمخمور.

قبعت في مكانها، بلا حركة، عيناها فقط راحتا تتبعانه وهو يرتقي درجات السلم الطيني، يضربها بحذائيه الثقيلين بوهن... فتتطاير أتربة خفيفة، لاتلبث أن تتلاشى. وحين توقف وصاح بها "إسمعي" إختفّت كمن فزّ من نوم عميق:

– نعم... نعم... عربيد.
– إذا سأل عني أحد، فأنا غير موجود. لم أعُد... من مأموريتي بعدُ.
– حتى العريف خلف؟
– وحتى أبو العريف خلف.

أجاب بغضب. وصدرت منه بضع كلمات أُخَر، قبلما يتوارى عن نظرها، فوق السلم. لم تسمعها، ولكنها تأكدت إنها شتيمة. وربما شتائم عديدة... موجهة إليها... أو الى العريف خلف... أو... أو... تمتمت ببطء شديد. وحزن غامر... شرع يتصاعد ويتشعب في داخلها "حسناً... حسناً" وأضافت بضعف "سأكذب هذه المرة أيضاً... سوف أكذب... كالمرات السابقة" ورسمت بيديها علامة يأس وإستياء مكبوت.

ماذا جرى لعربيد؟ ما الذي يجعله حاد المزاج وعصبياً الى هذا الحد.

ثمانية أيام بلياليها المزروعة بالأرق والحشرات، ونهاراتها المنقوعة بالقلق والملل والحرّ الجهنمي الحارق. وأنا وحدي، يتركني وحيدة، فريدة، لاأنس ولا جان. أنا والحيطان الصماء الخرساء تنهبني الوحشة والوحدة، يمزقني الشك والخوف... وإذ يعود... لايكلمني ثلاث كلمات... ولا يمكث بجانبي ثلاث دقائق؟ لا. لا. ان عربيد لم يعد ذلك الـ(عربيد) الذي أعرفه... عربيد الأليف... اللطيف... الظريف. الذي كان يحدثني ساعات وساعات عن (وظيفته) وتفانيه في سبيلها، بفخر وإعتزاز ورضا رؤسائه عنه وثنائهم الدائم عليه وعلى أدائه... وإعتمادهم الكلي عليه، هو، دون سواه، لقد... لقد... تغير كثيراً... منذ بدأوا يكلفونه بهذه المأموريات، التي تولج الليل بالنهار... والنهار بالليل، دون تفريق أو تمييز والتي يسميها هو، بإحساس بالمباهاة... بـ..."الخاصة"... وحتى الجيران... جيراننا الطيبين، المخلصين، الوديعين، الذين كثيراً ما ساعدوني، وقضوا لي حاجاتي وكانوا يزورونني... ويدعونني الى زيارتهم، حين أكون وحدى، يؤنسون لي وحدتي ويحيطونني بودّهم ومحبتهم وروحهم الإنسانية المتعاونة، قد منعني من التردد عليهم. مثلما منعهم من التردد عليّ. لماذا؟ ماالسبب؟ و... و... ثم ما حكاية النوم المبكر هذا؟ أنام أحد في هذا الوقت، وعلى السطح، في حر آب اللاهب. حتى الدجاج لاتنام في مثل هذا الوقت. إذن لماذا؟ ماذا هناك؟

لملمت بقايا أسئلتها الولود، مع فتات الخبز وقشور البصل ونوى التمر. والقت بها في القمامة. وراحت تغسل يديها ووجهها بالصابون المعطر، وحين شرعت تسرّح شعرها الكستنائي الطويل، أمام المرآة، إكتشفت أن ثوبها متسخ بعض الشيء... فقررت، على الفور، تبديله "مسكين... لاشك أن التعب قد هدّه، وغيرّ طباعه، كان الله في عونه، ليس هيناً على الإنسان أن يقضى ثمانية أيام، في هذا الجو الكافر، بعيداً عن أهله وبيته. بلا راحة ولا غسل. يلهث هنا وهناك، ربما بلا طعام ولا نوم..." قالت ذلك وهي ترتدي منامتها الوردية الرقيقة، التي تكشف عن مساحة غير قليلة من صدرها وذراعيها. والتي إشترتها مع جهاز عرسها قبل خمسة شهور فقط. مؤملة نفسها، بالرغم

من كل شيء، بليلة لذيذة، سعيدة، الى جانب زوجها، بعد ثمان ليال من العذاب والحرمان، والقلق والإضطراب، حتى رائحة البصل التي تبغضها حد الموت، والتي كثيراً ما صدتها عنه، ودفعتها أن تصدّ عن نفسها، وطنت نفسها على تجاهلها!! لا. لا. فهذه الرائحة التي تفوح بها كل مسامات جسده، قوية، نفاذة، ومن السطوة بحيث لايمكن تجاهلها وما عليها إلا أن تتحملها، وأمرها الى الله، أو أو... التخفيف من حدتها، فراحت ترش على جسدها، ووجهها، تحت ابطيها، المزيد من العطور...

قبلما تبلغ سطح الدار، حيث يرقد عربيد، وبينما لاتزال في منتصف السلم تقريباً، تناهى إليها صوت شخيره المتميز. فكرت "نائم على ظهره" ثم أضافت:

"كالعادة... كلما نال منه التعب".

بالفعل كان مستلقياً على ظهره، وقد علا بطنه على نحو غريب، وهو ساكن جامد... ذراعاه ساقطتان الى جانبيه... بإرتخاء، ولا مبالاة... تبدوان كأنهما ذراعا شخص آخر... لاتمتان بصلة الى هذا الجذع المنتفخ الممدود. الذي لايتحرك منه سوى صدره، يعلو ويهبط بإنتظام... وسوى فتحتي أنفه، وشفتيه الغليظتين، واللتين تنفتحان وتنغلقان، بين آونة وأخرى، أو بالأحرى، تهتزان برتابة. لينطلق منهما هذا الصوت المألوف عندها جيداً... برررررر... خووووو... خ خ خ خ...

توجهت نحو الحذائين الملقيين فوق المنام باهمال، على مقربة من قدميه الملبستين بالجوربين. اللذين يصعب التعرف على لونهما بسبب ما تكدس فوقهما من أتربة وأوساخ... إنحنت على الحذائين لتحملهما بعيداً. إقتحمت أنفاسها رائحة عفنة... شديدة العفونة "لعله لم ينزعهما طيلة هذا الزمن الطويل". سدت فتحتي أنفها وأبعدتهما عن المنام، حيث ستتمدد الى جانب زوجها. دفعتها بقدمها... بعيداً بعض الشيء. وإذ إنحنت ثانية كي تنزع عن قدميه الجوارب إستقامت فجأة كأنّ عقرباً لسعت أناملها وهاجمتها الرائحة نفسها، بشكل أكثر عنفاً وعدوانية وأشدّ عفونة ونتانة. أخفقت في التغلب عليها. أو حتى تحملها... بالرغم من كل العطور التي رشتها على نفسها.

إرتدّت ولكنها علّلت إرتدادها "أخشى أن يستيقظ فيغضب ويقرّعني" إكتفت بأن سحبت الغطاء الرقيق "الشرشف" وغطت رجليه حتى الركبة، آمله أن تخنق كل الروائح، تحته.

إزداد إهتزاز الشفتين، وتسارعت إنتفاخات المنخرين وإنغلاقاتهما، وعلا الشخير أكثر... وأخذت تنويعات متباينة تتخلله، حاولت أن تسحبه نحوها، تعدّل وضعه، تجعله ينام على جانبه، غير إنها فشلت ولم تستطع تحريك هذا الجثمان الثقيل قيد أنملة. كان العرق يتصبب منه بغزارة... مما جعل جلده... يلتمع، تحت ضوء القمر وأشعة النجوم، في السماء الصيفية الصافية، فبدأ أكثر سوءاً "بسبب البصل، كل هذا العرق الذي يسيح فيه بسبب البصل... آه... كل ذلك البصل الأزرق الحار التي إلتهمه" وأضافت "والحر أيضاً، الحر قاتل" تناولت طرف ثوبها وراحت تروّح له، وماهي إلا لحظات حتى تعبت ووجدت نفسها غارقة في العرق، هي الأخرى، فكفت وتمددت الى جانبه... ملتصقة به تماماً، وشرعت تلتصق به أكثر فأكثر. طوقته بذراعها. تحملت رائحة البصل والروائح الأخرى التي تفوح من فيه وقبلته... ولكنه لم يحرك ساكناً. وفشلت محاولا ت أخرى، عديدة، بذلتها لحمله على الإنتباه لوجودها... لصق جسده وجود أنثى شبه عارية لصق جسد رجل. ولكن من غير جدوى، ولولا هذا الشخير متنوع النغمات، المتصاعد بإستمرار وحركته الشفتين والمنخرين... لحسبته ميتاً... إحتواها اليأس فأقلعت عن محاولا تها اللامجدية، نهائياً، أدارت له ظهرها بقنوط وتأفف وإستياء، تململت في مكانها... قليلاً... ثم إنقلبت على وجهها، واضعة الوسادة تحت بطنها... تحركت فوقها، بكل قوتها بضع حركات... ثم خمدت في مكانها... وغرقت في... النوم.

في الصباح، حين أفاقت، وجدت شمس الصيف ترش الكون. وقد فرشت أشعتها فغطّت السطح كله، عدا بقعة صغيرة قابعة في الظل الذي يلقيه سياج بيت الجيران حيث يرقد عربيد حسن. ألقت نظرة عليه. كان لايزال غارقاً في النوم والعرق، سوى ان جلده، تحت أشعة الشمس الفضية، غداً أكثر لمعاناً، وإنه قد إنقلب على وجهه... وصوت شخيرة قد خفت الى حدٍ ما. تركته على حاله ونزلت كي تعد له إفطاره. بيد أن الشمس لم تتركه على حاله، فقد

طفقت تزحف نحو ببطء ودأب. لامست قدميه، وكوّر جسمه الا أن الشمس ظلت تواصل زحفها بإتجاه الرأس. سحب الغطاء فوق رأسه بإنزعاج. فبدا ككرة، منتفخة، مغطاة. وإذا كان الغطاء الرقيق قد أنقذه من أشعة الشمس الساطعة، ملقياً إياه في ظلمة مؤقتة. فإنه قد عجز عن إنقاذه من حرارتها اللافحة المتسربة خلاله، لاسيما، وإنها بمرور الوقت أخذت تقوى وتشتد. وتجعل جسمه الممتليء يطفح بالمزيد من العرق اللزج... مما دفعه الى بذل محاولة أخرى للهرب منها. فشرع يزحف نحو أسفل حائط الجيران، الذي أدرك بغريزته انه ينعم ببعض الظل. ولكن الشمس ظلت تلاحقه، ولم تدعه يستمتع بالفيء إلا هنيهة قصيرة ثم راحت تغمره وتصليه بنارها، دون أن تجدي المياه التي باتت تسيل من كل أنحاء جسمه في تخفيف حدتها... وإن كانت قد ضاعفت هيجانه... فقد سربلته بالدبق. وإذ خارت مقاومته تماماً، إستشاط غضباً. فنهض وبدا كأن واحداً قد صبّ فوق رأسه برميل ماء. وهو في غاية الإنفعال والهيجان، وكان أول عمل قام به هو أن قدم تقريراً مفصلاً، مطولا ً، مسنوداً بالبراهين والأدلة، والوثائق والشواهد، حسبما كتب، الى رؤسائه، ضدا الشمس متهماً إياها بالخيانة والتآمر وإقلاق راحة المواطنين المخلصين للوطن والمتفانين في سبيله.

و... و... و... و...

بعقوبة ١٩٨٦

رَماد فوق الجرح

المسألة بدأت على النحو الآتي:

كان يونس يحلق ذقنه، على عادته صباح كل يوم، حين رنّ جرس التلفون. خفق قلبه بشدة، وهرع إليه بسرعة، إذ حسبها المكالمة التي ينتظرها. والتي تتعلق بالوظيفة التي وعدوه بها:

- آلو... يو... نس... أنا... أنا...

وسكت الصوت. صاح يونس بقلق:

- أمي: خيراً؟ ماذا هناك؟ تكلمي...

جاءه صوت آخر أكثر تماسكاً:

- إنها النوبة اللعينة يا... يونس.

عرفه، أنه صوت شقيقته فاطمة. إضطرب وتساءل:

- وكيف حالها الآن يا فاطمة؟

- سيئة... سيئة جداً. تلبط مثل سمكة خرجت لتوّها من الماء. لا أدري ماذا... أفعل.

ندّت من يونس صرخة إزاء نبرة أخته الشاكية العاجزة:

- آه...

وأضاف سريعاً، بعدما حسم موضوعاً في ذهنه:

- أنا قادم... قادم حالاً. لاتقلقي.

وإذ أغلق التلفون. تذكر أن السيارة قد أخذتها زوجته. رفع السماعة ثانية. وقبلما يدير أيّ رقم إجتاز هنيهة تفكير. وراح يدير الرقم الذي تبادر الى ذهنه:

- آلو؟ محمد؟ آه... من حسن الحظ أني وجدتك. أمي مريضة والسيارة عند

سعاد... هل يمكن أن...

وقاطعه المقابل بدعابة:

- مريضة؟ أم تدّعي المرض؟

- لا. لا. إنها النوبة القلبية... وحالتها خطيرة... كما يبدو.

قال الآخر بنبرةٍ إتسمت بقدر أكبر من الجدّية:

- ثوانٍ أكون عندك.

إستغل يونس هذه الثواني التي إستطالت الى دقائق في إتمام حلاقته وإرتداء ملابسه. في سرعة قصوى. وأول ما شق سكون الصمت الذي لفّ كل شيء في البيت، صوتُ منبّه السيارة. ركض الى الخارج تاركاً الأشياء كلها. على حالها من الفوضى.

- أسرع... يامحمد... أرجوك.

قال يونس. وهو لايزال خارج السيارة.

- يا أخي... قل صباح الخير على الأقل.

إكتفى يونس بـ آه. وجلس الى جانبه.

وقبلما يحرّك محمد سيارته. ناوله منديلاً ورقياً من علبة المناديل الموضوعة في مقدمة السيارة. وقال:

- خذ. أمسح آثار الصابون من على وجهك.

- آه... لحظة... لحظة. أغسل وجهي.

أجاب محمد بسرعة:

- لا. لا وقت لدي.

وأضاف متحسراً. وهو يشعل سيجارة:

- الزمن يفرّ مني. كما يفرّ الماء من بين الأصابع.

وإندفع بسيارته مسرعاً. نحو الأمام. يروم القبض على الزمن الهارب.

أخذ يونس يمسح وجهه دون أن يقول شيئاً.

شعر بألم طفيف في صدغه الأيمن. كما لو كان ناشئاً من وخز إبرة، أهمله.

حتى أن الرطوبة التي تسللت الى رؤوس أصابعه من المنديل الورقي. لم تحمله على الإهتمام به. بيد أن الملاحظة العابرة التي أبداها محمد، بإقتضاب وبرود تام متفهماً:

– جرحت وجهك؟

جعلته يلقى نظرة خاطفة على المنديل الذي همّ بالقائه خارج السيارة. وإذ أبصر نقطة حمراء معتمة في زرقة الورقة السماوية...

قال:

– يبدو.

قالها بلامبالاة، وهو يفتح زجاج السيارة ويرمي المنديل الذي إتسخ بالصابون والدم.

نهره محمد:

– لاتعرضنا للعقاب يا يونس.

– العقاب؟

تساءل يونس بدهشة. ومدّ يده الى علبة المناديل. ليسحب ورقة أخرى. إذ أحس بالسائل الساخن لايزال يسيل على صدغه الأيمن. إنعطف محمد نحو شارع جانبي.

– ممنوع... إلقاء النفايات في الشارع.

قال ذلك وهو يلقي ببقايا سيجارته عبر النافذة الكائنة على يساره لم يعقّب يونس. لم يكن في حالة مزاجيه تسمح له بالتعقيب. إكتفى بسحب منديل جديد وبإعادة العلبة التي سقطت بين قدمي محمد. من جراء ذلك أو بسبب الإنعطافة القوية التي إنعطف بها محمد نحو اليمين، الى مكانها.

– ثم... لاتهدر المزيد من الورق.

– أعطيك علبة جديدة... حينما نعود.

– نعود؟

وتفادي بمهارة حفرة كبيرة على الشارع. وأضاف:

– لا يا أستاذ... دبّر حالك. فأنت لن تعود معي.

– ها؟

– أنا... على موعد.

تساءل يونس ساهماً:

– معها؟... مع سهاد؟

أحس يونس بأن المنديل قد تبلل وأنه بحاجة الى تبديله.

– ما هذا؟... إنه لاينقطع.

– سهاد... يا يونس... تملؤني... تكاد تنسينى كل من عداها.

إلاّ أن يونس كان مسكوناً بقلق بات يتسع:

– الدم. الدم لاينقطع.

أجاب الآخر ببرود شديد:

– سينقطع. إضغط على الجرح بعض الوقت.

سحب يونس منديلاً آخر من العلبة التي إحتفظ بها عنده.

– على مهلك يا أخي. أقول لك انى على موعد. وأنت تهدر... مناديلي، بلا حساب.

أعاد العلبة الى موضعها، دون أن ينظر الى وجه يونس.

هالته بقعة الدم الكبيرة على المنديل، فلم يحفل بما فعله محمد وإنما قال بصوت مرتجف:

– إإ... إنه... لايتوقف... يا محمد.

– ها؟... كيف؟... لابد أن يتوقف.

– لقد إخضلّ المنديل الثالث... وهو لا...

ردّ محمد يد يونس التي إمتدت نحو العلبة من جديد، وهو يقول محاولاً أن يبدو الأمر... كدعابة:

– قبلما تأخذ الرابع. دعني أرى.

قال ذلك وهو يخفف من سرعة سيارته بعض الشيء:

– إلتفت... إلتفت نحوي.

اضاف دون أي إنفعال أو تأثر:

- آوهو... إنه خدش... خدش بسيط.

وعاد بسيارته الى سرعتها السابقة.

- خدش؟ خدش بسيط وكل هذا الدم؟

همس يونس كمن يخاطب نفسه. بينما قال محمد بصوت عالٍ:

- ربما كانت الشفرة مثلومة.

- بل كانت سليمة... جديدة وسليمة.

وعاد يخاطب نفسه بصوت مسموع:

- أيمكن أن تكون، مع ذلك، ملوثة.

- ملوثة؟

أطلق محمد ضحكه عالية. وهو يقول بإستهانة بالغة:

- لو كانت ملوثة لقتلتكَ في الحال.

إستدار نحو اليسار وأضاف:

- عقّمه بالكولونيا.

- الكولونيا؟ أتحسبنا في صالون تجميل...

ضحك محمد ثانية وأشار الى صندوق السيارة الصغير قبالة يونس:

- إفتح... إفتحه... وستعرف أين أنت؟

ولم يدع وقتاً ليونس كي يفتحه، إذ أسرع هو بفتحه.

أطلق يونس صرخة دهشه: ياه!!

صدمهُ مرآى عدة تجميل نسائية كاملة... عطور... مساحيق... كريم... كولونيا... إلخ... بضع زجاجات ويسكي بحجم علبة الشخاط.

ظل لفترة يبحلق فيها. سأل محمد، بشعور عال بالزهو:

- هل عرفت، أين أنت الآن.

- في مبغى... مبغىً متنقل.

أجاب يونس بإحساس لم يخلُ من التقزز وهو ينتقي زجاجة كولونيا. بينما قهقه الآخر.

- إحترم خال أولادك. إنها الأخيرة في حياتي.

- الأخيرة؟

وصرخ، إذ لامس الرذاذ الجرح وفاحت الرائحة.

- آخ... كأنها حجرة نار.

عقّب محمد وهو لايزال يقهقه ويتنشق الرائحة التي إمتلأت بها السيارة:

- إنها النار فعلاً. النار التي أعدت لأمثالك من...

وتفادي بصعوبة شديدة. سيارة كبيرة. كاد يصطدم بها.

- إنتبه لسياقتك الرعناء يامحمد.

- خفت؟

وإستغرق في ضحك صاخب. حتى بات يهتز من على معقده.

وصرخ فيه يونس بحدة.

- إحذر... الضوء الأحمر.

عاطت الفرامل بقوة، فغطت على قهقهات محمد التي كانت لاتزال تهدر.

- كدت تقتلني... لعنك الله.

- لا. لا. إطمئن... يعزّ عليّ أن تترمل أختي وهي في... عنفوان شبابها.

وأضاف في الوقت الذي أخذ يشعل سيجارة جديدة.

- يونس... لقد سحرتني هذه الأنثى تماماً، وبشكل غير معقول... أزاحت كل من قبلها. بنت سداً أمام كل من بعدها... تربعت على العرش ملكةً أبدية. بلا منافس ولا منازع. كما يقال.

- ذلك ما تقوله عن كل واحدة يلقيها إبليس في طريق مغامراتك...

- ولماذا إبليس وليس ملاكاً من ملائكة الحب؟

كان يونس راغباً عن كل حديث من هذا النوع. قال بضجر:

- تحرك. لقد عاد الضوء الأخضر.

وإذ إستقامت السيارة بعد إستدارة صغيرة. قال محمد مضفياً نشوة طاووسية على نبرات صوته:

- يبدو لي... اني أكبر من أن تحتويني إمرأة واحدة.

لم ينطق يونس ظل غـارقـاً في المنديل الذي تغـيـر لونـه تماماً... بـينما كـان يونس مـتلذذاً بأفكاره وهواجـســه، كطفـل يدير قطعـه حلوى لذيذة في جـوف حلقه.

- سهاد. آه... ياسهاد. إنها دنيا... دنيا... كاملة...

- غريب. إنه يأبى أن يتوقف. بالرغم من...

خرج محمد من أحلامه. وإلتفت نحوه، بعدما خفف من سرعة السيارة.

- مع أن الجرح لايبدو عميقاً.

- الجرح؟ صار جرحاً؟ قبل هنيهة قلت إنه خدش... خدش بسيط.

أخرج يونس مـرآةً صغـيـرة من الصـندوق. ولكن الدم السـائل لم يدعـه يرى بوضوح عمق الجرح ولا مساحته.

تألّم محمد إذا أبصر الصفرة قد بدت على وجه يونس.

- إسمع يا يونس. من الأفضل أن آخذك الى المستشفى...

- وأمي؟ إنتفض يونس

أجاب محمد:

- تعود إليها بعد المستشفى.

- لا. لا... أن قلبها تعبان وأخشى أن...

لم يملك محمد نفسه من الضحك.

- مازال بوسعها أن تتعب وتتلف أيضاً قلوب ثلاثة رجال... آخرين.

ضحك يونس. كذلك إذ تذكر أن زوج أمـه الثالث قد توفى قـبل بضعـة أيام وبمرض القلب بالتحديد. قال محاولاً تغيير مجرى الحديث.

- لو تسرع يامحمد... ماذا جرى لك؟

- الى المستشفى؟

- لا. لا. الى البيت... الى أمي أولاً...

- أمك على مايرام... صدقني.

- لابد أن أراها... أولاً.

أصرّ يونس. وأضاف متوجعاً:

- إنها أميّ... يامحمد... أميّ.

* * *

أمام الدار، كان ثمة حشد من الناس، وسيارة إسعاف. شاهدا الأم فوق نقالة يحملها رجلان بملابس بيض. ففغر محمد فاه وقال بدهشة:

- كأنَّ الأمر جاد هذه المرة.

سحق بقايا سيجارته بينما صاح يونس راكضاً نحو أمّه وكفّهُ على صدغه الأيمن:

- أمي.

فتحت الأم عينها بوهن... سمع يونس صوتاً أشبه بالأنين، مشبعاً... بالحنان:

- يو...نس... ولدي... حمداً لله... إنك جئت... قبلما...

ولم يدعها الرجلان تنهى بقية كلامها.

- آه... دعوني... أودع أبني الوداع الأخير... يا...

أهمل الرجلان إحتجاجها ودفعا بها الى السيارة...

صرخ يونس وهو يشق طريقة بين الناس المتجمهرين:

- أمي.

وسمع صوتها ترد عليه قبلما يغلق الرجلان باب السيارة:

- إنه ابني... يا قساة... ابني...

ثم إختنق الصوت.

في هذه اللحظة خرجت فاطمة من البيت. حاملة حقيبة منتفخة.

- تأخرت يا يونس... تأخرت كثيراً.

قالت ذلك وهي تسرع نحو السيارة وتتخذ مكانها الى جانب السائق، وإذ إستقرت وإلتفتت نحو أخيها... صرخت بهلع...

- يونس... وجهك مدمّى...يو.

وإنطلقت السيارة سرعة... ولم يسمع يونس بقية كلامها... ولكنه انتبه الى

أن يده قد تراخت عن خده وأن المنديل قد سقط من بين أصابعه. وأن منبّه السيارة يصرخ ويولول وينشر عويلاً متقطعاً. سرعان ما خفتَ وتلاشى:

– يونس... يونس...

– ها...

– الدم... لايزال يسيل... يايونس.

– الدم؟

وإصطبغت أنامله بالدم. أسرع محمد الى سيارته، ليعود بكمية من المناديل. قال وهو يقدمها له.

– لماذا... لاتدخل البيت وتغسل وجهك و...

– أسرع بي... الى المستشفى يامحمد.

ألقى محمد نظرة خفية على ساعته... أضاف يونس بحرقة وتوسل.

– لعلي أحظى بالنظرة الأخيرة... يامحمد.

لم يجد محمد ازاء عمق نبرة يونس وحرارتها إلا أن يطأطيء رأسه ويذعن.

– هيا... يايونس... هيا.

ألقى يونس المناديل التي تبللت ولم تعد تجدي. وصعد السيارة. وما أن إستقر. حتى مدّ يده نحو علبة المناديل.

– آه... فرغت العلبة والدم لايزال يسيل.

والتقط الخرقة التي يمسح بها محمد زجاج السيارة.

– لا. لا... إنها غير نظيفة.

صاح به محمد. وأخرج من جيب سرواله منديلاً. قدمه له دون أن يلتفت نحوه.

– خذ... خذ... منديلي.

أضاف بعدما إستدار نحو اليسار.

– يُستحسن أن نبتاع علبة جديدة.

– أخشى أن نتأخر على أمي يامحمد. أرجوك لاضرورة.

إخضلّ المنديل، حتى بات بوسعه أن يعصره. إضطر أن يخطف الخرقة التي

حذره محمد منها، حين أحس بالدم اللزج الدافيء ينحدر على رقبته:

– محمد... لماذا لاينقطع هذا الدم؟

– مندهش... أنا الآخر مندهش.

قال ذلك وزاد من سرعة سيارته. قال يونس بضعف شديد:

– لاتسرع... أرجوك.

– ينبغي أن نصل المستشفى بأسرع وقت وإلا...

– أشعر بدوار... دوار شديد...

قالها بصوت لايكاد يسمع.

خفف محمد من سرعته وإلتفت نحوه... كانت الصفرة قد غزت وجهه.

– ليس الى هذا الحد. وإلا فاتك الموعد.

إبتسم يونس. حاول محمد أن يكون لامبالياً:

– كل مرة أنتظرها ساعات وساعات. لتنتظرني هذه المرة بضع دقائق.

سكت. أشعل سيجارة، برقت في ذهنه، مع الأنفاس الأولى التي راح يمنحها من سيجارته بلذّة، فكرة.

– يونس لماذا لاتضع الرماد فوق جرحك؟

ولما لم يتلقّ جواباً. إلتفت نحوه:

– يونس.

إلا أن يونس لم يجب. بدا كالنائم على معقده. صاح محمد بهلع:

– يونس... يونس

جفل يونس:

– ها؟ وصلنا المستشفى؟

– سنصل يا يونس. إطمئن... سنصل سريعاً وسيكون كل شيء على مايرام.

قال يونس ونبرة ألم تسري:

– ترى من أين لي كل هذا الدم الغزير؟ كأني أرنب مذبوح بعد جرى طويل.

– ألا... يوجعك...؟

- البتة. الغريب إنه لايوجعني البتة. لماذا لاتسرع بعض الشيء، قد أحظى منها بالنظرة الأخيرة.
- حسناً... حسناً.

وأدَ محمد فكرة الرماد فوق الجرح، إذ لم تجد صدى عند المقابل إمتلأ حلقه بالمرارة رمى السيجارة وزاد من سرعته.

حين وصلا المستشفى. لم يقو يونس على النزول من السيارة وحده. تحامل على محمد... وسارا معاً.

في صالة المستشفى تراخت ذراعه اليمنى التي كانت تطوق محمداً ووجد نفسه يتكوم عند قدميه.

صاح أحدهم:

- على المصطبة... مدده على المصطبة... هيا... يا إخوان... هيا... وإمتدت أكثر من يد.

حملوه مددوه على معقد خشبي طويل.

- الطبيب. ليناد أحدكم الطبيب.

تفرّق بعضهم. وأسرع أكثر من واحد بإتجاهات مختلفة.

- يونس... آه... يونس. إفتح عينيك... يونس.

وتناهي الى أذن محمد صوت فاطمة، من الممر الجانبي.

- دكتور... كيف حالها الآن؟
- بخير... إجتازت الأزمة بسلام. بوسعك أن تدخلي.

أسرع محمد نحوه، أمسك بكلتا بديه، يجره نحو يونس جراً. وهو يتوسل:

- دكتور أرجوك. الحالة خطيرة جداً.

تساءل الطبيب، إذ رأى الدم: ارتد الطبيب:

- طعنة سكين، أم...؟
- لا. جرح نفسه بالشفرة.

وأضاف محمد بسرعة، خشية أن يتصور الطبيب أمراً آخر:

- أثناء الحلاقة دكتور.

آنذاك فقط هدأ الطبيب وقال بدهشة:

- معقول؟

أمسك رسغ يونس. فتح إحدى عينيه المغلقتين.

- مع شديد الأسف. فات الأوان. (ترك اليد تسقط).

جمد محمد في مكانه، مذهولاً. أخرجته من ذهوله دقات ساعة المستشفى. لم يعرف عددها. ولم ينظر إليها. أسرع الى سيارته أدار المفتاح. وإنطلق مسرعاً.

لم يجدها في المكان الذي إتفقا عليه. توقف. أطفأ محرك سيارته تلفت يمنة ويسرة. بقلق مشوب بغضب مكبوت "حقيرة تصلبني ساعات. وحينما أتاخر عنها بضع دقائق... تتركني..."

وإذ همّ بتحريك سيارته لمحها مقبلة من بعيد.

وقفت عنده. إبتسمت:

- آسفة. حبي. تأخرت.

وأضافت من خلال إبتسامتها التي إتسعت.

- كالعادة.

قال باقتضاب وبلهجة آمرة:

- إصعدي.

وأشار الى الجانب الآخر من سيارته. ثم أدار المفتاح.

- لاتقطب. إبتسم على الأقل. مكروه. إنها ساعة وحسب.

زمجر:

- إصعدي.

ماتت الابتسامة على شفتيها. وفتحت الباب. تراجعت حين رأت الدم على المقعد وعلى أرضية السيارة.

- ما هذا؟ هل قتلت أحداً؟

جرّها الى الداخل بقوة. جلست على المقعد الذي كان يشغله يونس قبل هنيهة، بحذر شديد. مخافة أن تتلطخ ملابسها أو حذاؤها بالدم. دمه... دم يونس.

بعقوبة ١٩٨٧

البيت

دخلت الأم المطبخ. فوجئت بإبنها واقفاً أمام النافذة، يتطلع عبرها الى المطر المنهمر في الخارج، سألته بدهشة بالغة:

- ما الذي أيقظك مبكراً، يا علي؟

توجهت نحوه غير منتظرة جوابه. وهي تقول برجاء وأمل:

- لاتقل إنك تزمع العودة الى القرية. مثلما فعلت في العام الماضي. قطعت إجازتك وهربت.

- لا، هذه المرة سأقضيها هنا. معكم في البيت.

وإلتفت تجاهها وعلى شفتيه إبتسامة باهتة. هالتها عيناه...

- عيناك محمرتان... كأنك لم تنم. و... ووجهك شاحب... ماذا بك ياولدي؟ هل أنت مريض؟

أمسكت بكلتا يديه بين كفيها. قلقة مضطربة:

- يداك الناحلتان باردتان. لماذا لم تشعل المدفأة. كيف تتحمل هذا البرد القارس؟ لحظة... لحظة أشعلها الآن.

وبينما هي تبحث عن علبة الثقاب إقترب منها علي. وقال بعد تردد قصير، مشيراً الى الغرفة العليا.

- أمي... الى متى تمكث عندنا... هـ... هناك.

- تعني... في غرفتك...؟

تساءلت الأم. توهج عود الثقاب بين أصبعيها وراحت تشعل المدفأة النفطية... المنتصبة وسط المطبخ. أطرقت قليلاً تصغي لهاجس الخوف الذي أخذ يتحرك داخلها.

- أتنوي مبادلتها بغرفة... أختك... شير... شير.

طفرت من عينها، في غفلة منها. دمعة جموح قطعت كلامها. فأسرعت تمسحها بطرف ردنها حريصة أن لاتدع إبنها يراها:

- لا. لا. أبداً.

أجاب بنبرة قاطعة تقطع شكوكها التي غزتها بلا أي مبرر وتمنعها من الإجهاش بالبكاء على عادتها، لكنها تذكرت أبنتها الوحيدة، وإسترسل يطمئنها موضحاً:

- إذا كنت لا أطيق وجودها في غرفتي، فكيف أستيسغ إستحواذها على غرفة شيرين التي إنطفأت في عمر الورد.

وندم على العبارة الأخيرة التي فلتت منه، في غمرة إستسلامه، رغماً عنه، لطغيان عواطفه وأحزانه، إذ ايقن إنها ستفجر آلامها وأوجاعها المكبوتة، فتنسجها حديثاً مبلولاً لاينقطع ولا يتوقف. لاتقطعه ولا توقفه إلا دموعها التي ستنهمر وتطغى عليه. وسرعان ماوقع ماكان يخشاه.

- سبع سنوات يا علي. سبع سنوات وبضعة أيام لم تتعد الأسبوعين و... و....

شهقت مختنقة بالدمع.

أطلقت آهةً حّرى... آه... آخ...

أشاحت بوجهها سارحة بنظراتها الى الخارج، الى السماء التي ترسل دموعها مدراراً... وبغزارة تحسدها عليها، من غير أن يحاسبها أو حتى يلومها أحد وسمعها تسأل نفسها، بصوت مّتشنج... متقطع!.

- هـ... هل ضاعت... ط... طفلة في مثل هذا العمر؟ مستحيل. حتى المياه المجنونة... الغاضبة لاتقتلع زهرة يانعة من جذورها في يومها السابع.

لشدة تعلقها بإبنتها التي هلّت عليها بعد إنتظار طويل. قاس ممض، بدا كما... لو كان عقماً ابدياً إستغرق سنوات طويلة. كانت تعد عمرها بالأيام. أمس كان عمرها كذا. واليوم كيت. وغداً يصبح كذا ومع أن الأيام راحت تتكوم لتستحيل شهوراً وسنوات. فانها لم تقلع عن عاداتها ظلت الأيام عندها... تطغى على كل ماعداها. ولم يعد الزمن في نظرها غير أيام. مجرد أيام قلائل قصار. تنقضى هي الأخرى كما الومضة تمتمت دون أن تستدير نحوه... بصوت مسموع:

- بعد... أيام... تبلغ العشرين.

لم ينطق علي... ظل ساكتاً... يستمع الى دقات قلبه الواجفة.

في اليوم الأول من إجازته السابقة "وقفت امامه تتأمله. تتفرس فيه كأنها تراه للمرة الأولى: سبحان الله كأنك هي..." لم يقل شيئاً. لم تبال بصمته "هي الآن في مثل طولك. ربما تقصر عنك قليلاً. وذلك لأنك تكبرها بضع سنوات. بيد أن لها... نفس ملامحك، الحيية الخجول. ولكن الصارمة والواثقة وقت الجد ونحافتك أيضاً. أنت حينها كنت صغيراً. صغيراً جداً... لاتتذكر شيئاً، لم يطق صبراً، إنفجر: "حينها. كنت في الرابعة عشرة. ولم أكن صغيراً. وأتذكر كل شيء. كل شيء يا أمي... فلا تدمي قلبي..." وتراجعت، مكسورة القلب مخذولة "حسناً... حسناً... لاتصرخ... أنت الآخر مثله، مثل أبيك. تهيج وتثور. بلاسبب. لابأس... لن أعود الى ذكرها... ثانية".

ولكنها عادت. مرات ومرات. حتى ضاق بها. ضاق بالألم الذي يمزقه. كلما سمعها تتحدث عنها... فحمل حقيبته وعاد الى القرية... يقضي إجازته بين المرضى من مراجعيه الفلاحين القروين في المركز الصحي.

"ولكن... لا... هذه المرة لا. لن أعود... قبلما".

- علي... كررته ثانية... علي.

َرنا إليها. كانت قد كفكفت دموعها وتوجهت إليه بكلّها أدرك إنها بصدد أن تقول له شيئاً يعرفه، ولا يود سماعه وهمَّ أن يمنعها. ولكنه لم يفعل. وجد الأمر فوق طاقته. قاسياً، لاإنسانياً. هي تنتظره يوماً. يوماً... ساعة. ساعة... لتشكو إليه. هو دون سواه. همومها وأحزانها. التي لاتجرؤ على ذكرها أمام زوجها الذي سرعان ماينهرها. وتعود الى نفسها تجترّها وحدها. فتفقس أحزاناً مضاعفة لاحد لها. ولا قبل لها بتحملها.

ألفى نفسه، يستجيب لها ويقول بهدوء تام:

- نعم... يا أمي.

لهنيهة ظلت مشتته، مترددة. ثم لملمت نفسها وتغلبت على ترددها:

- أقول... هل بالإمكان... إذا. إذا كان لايضيرك. أن... أن نفاتح أباك لعله

يوافق أو... أو لايعارض أن يقيم حفلة... عيد ميلاد....

وكاد ينفجر ويصرخ بها... حفلة عيد ميلاد لمن... للميتة؟ ولكنه ضبط نفسه في اللحظة الأخيرة، وتساءل بدهشة وإستنكار:

- حفلة عيد الميلاد ؟

- لا... لايذهب بك الخيال بعيداً - حفلة صغيرة. على قدر الحال. تقتصر على الأصدقاء والأحباب... فقط... فقط لو يوافق أبوك.

إعتصر الألم قلبه بشدة. رددت أرجاء نفسه صدى صرخة خرساء مكتومة إنشقت من أعماقه "يا إلهي... ماذا أفعل... هل احمل حقيبتي وأعود...".

- ولكن الحاج لايوافق... انا أعرفه. قاس هو أبوك يا علي... قا... قا....

وإختنقت بالكلمة. كأن يداً خرافية أطبقت فيها. وألقتها في دوامة من الحيرة والإرتباك.

- لا... لا ياعليّ - عليَّ اللعنة... لاشك إني أهذي... آه... ان أباك إنسان رائع. نادر المثال. عاقل وحكيم... أرجوك. أرجوك إنس كل ماقلت... لاتأخذ هذياني مأخذ الجد... آه... إنها الحالة الغريبة التي تتلبسني. كلما تذكرتها. تفقدني عقلي... تطلق لساني بما لاأعيه... ولا أعنيه... لاأعينه بتاتاً يا علي.

إحتضنها علي مشفقاً ومواسياً. وراح يقبلها محاولاً التخفيف عنها، بيد إنها لم تكن قادرة ان تغفر لنفسها زلة لسانها... فظلت تهدر:

- أبوك علي. ابوك تهمّه سعادتي. سعادتنا جميعاً... ولا يفكر إلاّ بها... و... ويقول إنها لاتتحقق إلا بالتخلص من الوهم... بـ... بـ التحرر من عبودية الوهم ذلك مايقوله بالضبط.

- صحيح يا أمي الحبيبة. ما يقوله صحيح جداً. الوهم سراب في صحراء حارقة... يلهث وراءه الظمآن، متشقق القدمين، متشقق الشفتين ولا يعود... بغير الخيبة. فارحمي نفسك من هذا العذاب الذي تعيشينه منذ سنوات.

إنكمشت على نفسها... وهي تقول بإنكسار، غير مصدقة:

- و... وأعيش عذاباً أقسى وأمرّ. عذاب واقعٍ خالٍ من... من شيرين...؟

- شيرين غابت يا أمي. خَلَت منها حياتنا. تلك هي الحقيقة. يجب أن تقتنعي بها رغم مرارتها. وتردمي ينابيع الألم التي يفجرها الوهم في أعماقك ويجددها على الدوام.

ظلت تحدق فيه بعينين تبرقان أو بالأحرى تعكسان بريقاً غريباً. كما لو كان صادراً من كرتين زجاجتين لاحياة فيهما ووجهها الناحل بارز العظام، قد غدا، على حين غرة، أكثر نحولاً، وعظام وجنتيها أكثر بروزاً وحين شدها إليه. بدا له إنه يحتضن هيكلاً عظيماً في ثوب فضفاض لو حُشيَ بضعفه لما إمتلأ.

داهمة فجأة حزن عميق. من نوع غير مألوف. لم يألفه من قبل ولا جرّبه. ترى هل تجاوز الحد وصار أقسى من الوهم والسراب اللذين يحذرها منهما؟ أشد توحشاً و... ومرارة من واقعها الذي تهرب منه وتلوذ بالوهم والسراب؟

تصلب هنيهة ثم قال في نفسه "ليكن... حتى الموت نفسه، بالرغم من كل قسوته ولا إنسانيته، يكون أرحم، حين يقبل دفعة واحدة، من أن يظل ينساب في الحلق جرعة... جرعة بصورة يومية، تنتظم العمر كله كما الحال معها".

كانت هي بين ذراعيه، تصغر... تتضاءل. وإذ إنسلت، لم يكد يشعر بها إلاّ حين سقطت ذراعاه على جانبيه. ورآها تبتعد، تسير نحو الموقد المحشور في زاوية المطبخ - دون أن تنبس ببنت شفة غارقة في همها... في بحر أفكارها، حيث تتقاذفها أمواجه العاتية:

أإليَّ... إليَّ يوجه مثل هذا الكلام الغريب وهو الذي ظل يطوي الليل والنهار عند النهر... شد نفسه حتى بات جزءاً منه... يخوض فيه أو يحرث ضفافه، باحثاً عنها بجنون، من محلة ئازادي حيث وقعت البنت الى قصبة تازة التي عندها يتشعب نهر (خاصّة) وتضيع مياهه ولا يعود سوى مجموعة سواقٍ ضحلة المياه مكشوفة الأحشاء لو سقط فيها مسمار لعثر عليه الطفل. وحتى بعدما... ذابت ثلوج الجبال وتسربت مياهها هنا وهناك وتوقفت سيول الربيع. وجّف النهر وعادت أعماقه. كما هي معظم أيام السنة. احجاراً ملساء تلمع تحت شمس حزيران وتموز وأكوام رمال تتوزع طولاً وعرضاً. لم يفارق علي النهر، أخذ يقضي جلّ نهاره في مقهى (روبار) ومعظم ليله في نادي المعلمين الواقعين على النهر. لماذا هذا المقهى وهذا النادي بالذات دون سواهما مع أن

كركوك مدينة فسيحة... واسعة تمتليء بأمكنة أكثر راحة؟ اليس لأنه هو الآخر كان يتوقع ظهورها... أو سماع خبر عنها.

قالوا الجثة لاتمكث في النهر إلاّ يومين أو ثلاثة. ثم تنتفخ وتطفو فوق سطح الماء فيراها القاصي والداني، ولكنهم ذرعوا النهر وعلى مدى عشرات الأيام ولأبعد المسافات بمئات العيون. عيون لاتغمض. لاتكلّ ولا تتعب. تُستبدل وتتجدد كل بضعة ساعات وما أكثر العيون الوفية، المخلصة، الصادقة التي تطوعت، لقد إستحالت كركوك كلها عيونا لاتنام تبحث ليل نهار عن شيرين. ولكن شيرين لم تظهر لم تطف على وجه الماء لم يراها الداني ولا القاصي. ذلك يعني بكل تأكيد أنها حية... وأنها لم تتحول الى جثة وأن أحدهم قد أنقذها... وهي عائدة الى بيتها لامحالة... لامحالة.

فتحت الصنبور لتملأ القوري. فتدفق الماء بقوة ضاجاً، ضاجاً مليئاً بالطين.

يوم النحس ذاك. أيضاً كان نهر خاصة... شاذاً ضاجاً وصاخباً. مياهه الهائجة تتدافع طبقات من الطين والغرين... آه أيها النهر العتيد أيها الشائخ العجوز يامن تقطعت عروقك ولم تعد غير أخاديد محفورة في الأرض. يامن نشف ريقك وغداً أتربة ورمالاً ويبس لعابك وإستحال حصىً وأحجاراً. كيف فاض بك الغضب يوم الشؤم ذاك. وتقيأت كل تلك السيول العارمة، المتهورة المجنونة ولفلفت زهرتي اليانعة في طوفان فيئك البغيض الكريه... الذي ظل يندلق أياماً وليالي.

عاع... عاع... عوع... عوع... عوووو عاعا.

– أمي... ماذا بك؟ أمي.

وإنتبهت... أنها قد سهمت عن نفسها. وراحت تطلق أصوات من يتقيأ فعلاً. قالت... بلا مبالاة:

– خيل الي إني أبتلع كمية من النمل.

– النمل؟

تساءل بإستغراب وهو يدفع قوري الشاي. بعيداً عن مسقط الماء الطيني المتدفق من الحنفية. تمّهل بعض الوقت. ريثما صفا. وأخذ ينساب شفافاً...

رقراقاً. غسله جيداً ثم ملأه. ووضعه فوق الموقد الغازي. أضرم تحته النار وإستدار نحو أمه.

– لم تقولي شيئاً... بشأن...

– بشأن غرفتك؟

قاطعته. ألقت بالمنشفة التي كانت تجفف بها وجهها على أحد المقاعد:

– ليست في البيت غرفة فارغة ياعلي.

إختضَّ علي، خضته العبارة.

إنها العبارة نفسها التي أطلقتها على ابيه. حين قال لها ذات مساء. "وفاء كبرت يا زينب وليس من اللائق أن تنام معنا في غرفتنا"، كان واضحاً إنه يلمح الى غرفة معينة ردت بإنفعال "ليست في البيت غرفة فارغة يا حاج" ولكن الحاج أصرّ. كاشفاً عن نيته "بل هناك. لننتقل الى غرفة.." ولم تدعه يكمل. صرخت بحدة وبلاترو "لا" وأبصر هو الغضب في عيني أبيه يشتعل. فأسرع يقول "لننتقل الى غرفتي. أنا أشغل غرفة أختي" وكان أن كافأته أمه بنظرة مليئة بالإمتنان... لاينساها... أبداً.

أمسك بها علي من كتفيها برقة...

– أرجوك يا أمي... لاتسيىء فهمي... إنا لا أطيق وجودها في البيت برمته... في الدنيا بأسرها... إنها...

– علي... أشفقْ على أمك. ولا تخلق مشاكل مع أبيك... ينبغي أن لايسمعك وأنت تتحدث عنها على هذا النحو.

– بل ينبغي أن يسمعني لابد أن يسمعني.

– لاتضعني بين فكّي رحا... يا ولدي. أرجوك دع الأيام القليلة التي تقضيها في... البيت... تمضي بسلام.

أدارت له ظهرها وراحت تشغل نفسها بإعداد الشاي وتهيئة الفطور هي الأخرى برمةٌ بها ولا تطيق وجودها ولكن ماذا بوسعها أن تفعل وكل ماتفعل يرتد إليها مشاكل وخصومات بعدما يصطدم بالرجل الصخرة الذي لايلين.

– يا أمي، فكرّي معي. إذا كان ثمة مبرر لايوائنا إياها، حين كانت طفلة

رضيعة... بريئة... بلا أحد. فإنها لم تعد الآن كذلك. وبقاؤها عندنا يسيء إلينا... وهي ليست بحاجة إلينا... ولا ...

– ونحن أيضاً لسنا بحاجة إليها.

زعقت بحدة:

– لم نكن يوماً بحاجة إليها.

– إذن ما الأمر يا أمي... ما السرّ؟

تساءل علي بهدوء.

صرخت الأم وقد بلغت قمة إمتلائها بالغضب والعجز:

– الأمر عند أبيك... السرّ عند أبيك. أووه... الى ماتقودني ياعلي...

ومع الدقة الأولى للساعة المعلقة على حائط المطبخ دفعته عنها:

– دعني... دعني أوقظ أباك. إنها الثامنة.

وإندفعت خارجة وهي تضيف في إنفعال شديد:

– الى متى يظل نائماً؟

وصفقت الباب خلفها بقوة. جعلت ضلفة الباب ترتد... وتنفتح ثانية. من غير أن تشعر. تاركةً إياه في حيرة مغلقة.

وفي حالة غضب عارم شمله. سحق. تحت قدمه صرصراً طائراً. أسود كبير الحجم إقتحم المطبخ من فتحة الباب وإلتصق برجله اليسرى. أحاله الى مايشبه بصقة ملوثة على مفرش المطبخ. تقزز من مرآه. إقتطع قصاصة من الجريدة المفروشة فوق منضدة الطعام. لف بها بقايا الحشرة القذرة وألقاها خارجاً... ولكن ريحاً عاصفة... مشبعة بزخّات من المطر... إعادتها الى الداخل. بحث عنها هنيهة. لم يعثر عليها ولم يشغل نفسه بها طويلاً... "ستكنسها أمه... مع النفايات وفضلات الطعام..." أهمل أمرها تماماً.

كانت دفقات المطر تصفع زجاج النافذة بقوة. طيلة ليلة أمس لم يتوقف المطر وسيتواصل هطوله اليوم أيضاً. فالغيوم السوداء لاتزال تغطي السماء. "أحسن".

قال في نفسه سيكون ثمة متسع من الوقت للحديث مع أبيه. فلا أحد في

مثل هذا الجو المشحون بغضب السماء، يغامر بأعمال البناء وما شابه. فكّر... وهو يرنو الى شجرة الصفصاف العريضة التي تتلاعب بها الرياح العاصفة تهزها يمنة ويسرة حتى لتكاد تقتلعها من جذورها... وليتها تفعل. مانفع هذه الشجرة الثرثارة، الصاخبة البدينة في الوقت الذي كسرت الرياح، ليلة أمس. شجرة البرتقال الفتية الشابة. التي زرعها أبوه. يوم ولادة شيرين والتي كانت مثقلة بثمار تلتمع... تتراقص حين تداعبها الرياح... مثل كرات مغسولة من الذهب.

إرتد عن النافذة إذ لمعت السماء فجأة. وقذفت بلسان نار، مثل تنين خرافي... وأعقبه هدير... إهتز له البيت.

"السر عند أبيك... الأمر عند أبيك".

دوت في أعماقه الصرخة التي أطلقتها امه. والتي كان يحاول جاهداً أن يغلق أذنيه دونها... أن يتجاهلها. وبرق في ذهنه ماقالته ذات مرة "أبوك – لايستطيع... التخلي عنها" فإختلطت معه وتداخلت... أوقعته في عجز ذهني... تام... إحتدمت في نفسه رغبة شرهة الى الدخان. وحين وضع السيجارة بين شفتيه وقرب رأسه من المدفأة. أحس بالجوع، يعصر معدته وخشى أن يحدث له مايحدث كل مرة. عندما يقذف بالدخان المر على معدة خاوية فتجرفه نوبة سعال لحوح. ثم تسلمه الى الغثيان والتقيؤ وتشرع سكاكين حادة تمزق أحشاءه وتسيلها سائلاً أصفر... داكناً... متدفقاً من فيه مصحوباً ومتبوعاً بآلام وأوجاع... وأقاويل وإتهامات باطلة... "لقد أفرط في الشراب".

أعاد السيجارة الى العلبة. وقرر أن لايدخن قبلما يلقي في جوفه لقمة، شعر بدوخة في رأسه. وبتشتُّت في أفكاره. وإنعدام القدرة على التركيز... نفد صبره ولم يقو على الإنتظار لحين تناول الفطور معهم. صبَّ قدحاً من الشاي. غمس فيه قطعة من الخبز وإقتطع بأسنانه جزءاً صغيراً منها وأخذ يلوكها في فمه بهدوء.

أثار المذاق الحلو للشاي الحار شهيته الى السيجارة وهيجها. تكرمشت بضع شعرات في رأسه وحاجبيه حينما قرب وجهه في فتحات المدفأة. لم يبال، إكتفى بفركها وراح يمتص أنفاساً عميقة من سيجارته ويطلقها أدخنة متداخلة

الحلقات حيناً منفرجتها حيناً آخر.

عادت الصرخة تدوّي. مامعنى إنه لايستطيع التخلي عنها؟ ومتى كان الحاج شكر علي القوي، الصارم المعتد برأيه. خاضعاً لقوة غير قوة عقله وإرادته؟ أيكون... الحاج وقع في... في... ويفكر بـ... بـ وخذلته شجاعته لم يجرؤ على تلفظ أي من الكلمتين. بل أسرع بنفيهما معاً. بيقين وجزم "مستحيل" الحاج رجل تقي ورع. لايمكن أن يخرج على العرف أو يفعل مايخالف الشرع، "إنها كارثة لو وقعت من شأنها أن تعصف بالبيت وتقوّض أركانه على رؤوسهم جميعاً. على رأسه أولاً لا. لا. مستحيل" إمتلأ حلقة بالدخان "إنها حماقة حماقة كبرى... بل... بل جريمة كبرى... لايمكن أن يقترفها الحاج..." نفث الدخان... سحابة مفتتة محلوجة إذن ماذا في الأمر؟ ما سر هذا التعلق الغريب بها وهي لاتمت إليهم... بصلة.ألا يعرف حقيقتها وقد باتت سيرة سيئة على كل لسان؟

أبوك كان خارجاً من الجامع، بعد صلاة العشاء والتراويح. قالت له أمه حينها بكل صراحة وحدها ملقاه على عتبة الباب، ملفوفة بخرقة قذرة. ملطخة بالدم وعويلها يقطع نياط القلب. فأشفق عليها وجاءبها الى البيت ترضع مع أختك ثم راحت تصب لعناتها على من سمتهم بالزناة والمجرمين الذين لايتقون الله ولا يخشونه ويلقون بثمرات آثامهم على أعتاب بيوت الله. مستغلين طيبة مرتاديها ونقاء سرائرهم. وهو في سنواته السبع إذ ذاك لم يستطيع أن يجد أي تفسير لهذا الحادث... البشع الغريب وظلت الطفلة الجديدة موضع عنايتهم ورعايتهم جميعاً. تأكل وتشرب، تحيا وتكبر مع شيرين دون تفريق أو تمييز. ولم يكن ثمة مايعيبها سوى محاولا تها الدائمة للإستحواذ على لعب أخته مع إنها تمتلك مثيلاتها. وأيضاً مالاحظوه جميعاً من إنها كثيراً ماتعود من... بيوت الجيران. بحاجة ما. قد لاتكون ذات قيمة. زاعمة إنهم أعطوها إياها بينما تؤكد شيرين إنها إستولت عليها بالبكاء والإلحاح أكثر الأحيان و... وبالسرقة أحياناً أخرى. ولم يكن العقاب الذي يفرضه عليها الأب، بالرغم من قسوته في معظم الحالات. ليردعها كثيراً، إلا أن الأمر الآخر الذي أقلقهم جميعاً وتصدى له الأب بحزم هو فشلها المتكرر في الدراسة

وهروبها شبه الدائم من المدرسة. ولكن أيضاً. من غير أن يحقق معها نجاحاً يذكر فقد كانت الصبية في عناد البغل.

أشعل من عقب سيجارته سيجارة جديدة وراح ينفث دخانها.

علي لم يحبها ولكن أيضاً لم يكرهها إلا بعد مافعلته بشيرين... آخ... شيرين لقد كانت إنسانة أخرى، قطعة كريستال، صافية، نقية، شفافة... تشع على البيت بمهرجان ألوان من الفرح والذكاء. والأمانة والصدق... و...

صرّ الباب، وإمتلأت فتحته بقامة أبيه - ملتفاً بمعطفه الأسود السميك تتبعه أمه. أطفأ سيجارته بسرعة وقدم له الكرسي الذي كان يشغله وجلس قبالته. إنهمكت الأم في عملها. عند الموقد تسترق السمع وتتلفت نحوهما بين آونة وأخرى. هاهما معاً... وجهاً لوجه... وبينهما ثالث غير مرئي ولكن محسوس... يهيمن عليهما... بحضوره المتوتر المشحون بنذر عاصفة... على وشك... الإنفجار.

أخذ الشاي يغلي. مع أن النار التي تحته هادئة. خففت من النار ماتستطيع كي تمنع... فورانه الذي يفسد مذاقه. إنهما لايزالان صامتين ساكنين ولكنها متأكدة إنهما... يفوران من الداخل. مثل ديكين ينتظران الفرصة الملائمة للوثوب وبدء المناقرة. لماذا لايبادر أحدهما بالكلام. إن هذا الصمت الغاضب الجاثم بينهما يقلقها. ليتكلما. فقد يحتكمان الى العقل ولا يكون الأمر بالسوء الذي تخشاه ولا تستطيع منعه.

لم يقل علي شيئاً. ربما بإنتظار أن يقول هو شيئاً. بيد أنه لم ينطق هو الآخر ربما للسبب نفسه ظل مسيجاً بصمت أكثر سمكاً من المعطف الذي يلفه حول جسمه. ولا تتحرك منه سوى أصابعه المتشققه. المبيضة من آثار الكلس. وهي تداعب المذياع الصغير الذي أخرجه من جيب معطفه وتصدر عنه خرخشه غير عالية. ترى هل أفضت إليه أمه بشيء. ليتها فعلت. فإن ذلك من شأنه أن ينقذه من مشقة البحث عن مخرج من هذه الحيرة التي تسوّره.

- هيا... هيا... كلا.

قالت الأم وإتخذت مكانها بين الرجلين. وراحت تملأ اقداح الشاي... أخرَسَ الأب الخرخشة غير النافعة. ظل علي يداعب سلسلة ساعته المعدنية دون أن

يتحرك أو حتى ينتبه لأمة وهي تحثه...

– هيا... يا علي... هيا ياأبني... ُمدّ يدك.

– مع هذه السموم. هل بوسع أحد أن يأكل شيئاً؟

خرج الأب من صمته وهو يشير الى منفضة السجائر. ألقت الأم بمحتوياتها في سلة المهملات بسرعة. وتوجهت الى علي تعاتبه برقة.

– لم نصدق إنك تخلصت منها ياعلي. لماذا عدت إليها ثانية؟

وأسرعت تقدم بنفسها الجواب، على عادتها. أو بالأحرى... العذر له:

– لعلها... الوحدة هناك. الوحدة قاسية.

" لست وحيداً هناك. معي أناس رائعون. فلاحون... قرويون. طيبون والطبيب نفسه... رائع... وكلهم أصدقاء صميميون... ولكني وحيد هنا... هنا..."

أضاف الأب مداعباً... ولائماً في الوقت نفسه...

– وأية عودة. عودة رنگو الذي لايتفاهم. منذ الصباح الباكر وعلى الريق.

فندّت شفتاهما عن إبتسامة إنعكست على وجهه تقطيباً.

– دخنت ثلاثين سنة. قبلما أقلع عنه الى غير رجعة. ولم أضع في فمي سيجارة إلاّ بعد ماأشرب شاي الصباح وآكل شيئاً حتى ولو كان قطعة خبز يابس.

إذن فهو أو هما معاً. بإتفاق بينهما أو بدونه يرميان الى إبعاده عن موضوعه الأساسي ظل يحدق في قدح الشاي الذي شربه والذي لايزال فوق المائدة وحوله مافضل من قطعة الخبز الذي يأكله. لم يقل شيئاً. شعر بنفور شديد من كل حديث ليس في الصميم.

مضت فترة وهما يأكلان. عَلَت خرخشة المذياع ثانية حين عادت الأصابع المجصّصة تداعبه... لم تلبث أن صَفَتْ [القوات الصهيونية تحتل قرية في جنوب لبنان و...] قال الأب بغضب:

– لاتزال... هذه الدويلة سادرة في غيّها.

وأغلق المذياع بعصبية.

علّقت الأم:

– خلية سرطانية خبيثة. ينتهي بها الحال الى تلويث الدنيا من حولنا إذا لم ُتقتلع.

– إذا لم تقتلع. ردّ الإبن. إذا لم تقتلع. كررها ثانية وهو يتأمل أباه.

أهمل الأب ماقالاه ولم يحفل بنظرات إبنه... تساءل وهو يشير الى المقعد الخالي.

– و... وفاء؟

– كعادتها. عادت متأخرة، وطلبت أن ندعها ترتاح.

– أميرة!!

قال علي. بصوت عال. وبإمتعاض. لم يعلق الأب ولا الأم. إنصرفا الى أكلهما.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. ألقت مع تحية المساء معطفها المبلل فوق الكرسي الألمنيوم في الصالة. سألتها أمه عن العشاء. أجابت بصوتها الممطوط... (تعشيت... خالة) خالة؟ كانت تدعوها فيما مضى... ماما... ومن يدري ربما نادتها فيما بعد بإسمها المجرد. لم لا؟ ألا تنادي مَنْ كانت تسمية بابا بـ... الحاج؟ ثم قالت شيئاً آخر لم يسمعه ولكنه سمع أمه تردد "حسناً... حسناً" هي الأخرى لم تقل يا إبنتي. كما إعتادت أن تقول دائماً. تلك علامة جيدة... لتتوضح الحقيقة لتوضع النقاط ينبغي. أن تكون.

– ألا تأكل شيئاً ياعلي؟

سيعقب هذا السؤال رفع المائدة. وإنفضاض الجلسة التي تجمعهم... معاً كانا يرنوان إليه في إنتظار جوابه. تناول قطعة جبن وراح يمضغها... إستعذب ملوحتها وأخذ يديرها في حلقه. مد يده الى علبة السجائر. مدفوعاً برغبة قوية ولكنه توقف. لم يعتد أن يدخن في حضرة أبيه. تناول بدل العلبة قدح الشاي. كان بارداً لم يستسغه ومع هذا فقد أفرغه في جوفه. فقد إمتصت الملوحة رطوبة حنجرته.

– أبي... أريد أن اتحدث معك حول البنت...

أجاب الأب بإمتعاض:

- إن للبنت أسماً يا علي. وأنا من أطلقه عليها... ويسوءني جداً أن تتجاهل ذلك وتتعامل معها كنكرة.

أجاب الأب بسرعة. كما لو كان الجواب مهيئاً منذ زمن.

قطع من الغيوم... سوداء... خفية شرعت تنطلق مع كل حكمة من حكماته التي ينطقها بهدوء وعمق... وتتناثر في فضاء الغرفة الصغيرة... وما أسرع ماتتجمع... وتنفجر رعوداً وعواصف وزوابع. أعنى من تلك التي لاتزال تلطم البيت من الخارج.

حبست أنفاسها. صامتة... ولكن ضربات قلبها المتصاعدة... المتعالية... أخذت... تخضها... قال علي بهدوء:

- أنت أطلقت عليها أسماً واحداً فقط. وهي الآن قد إنتحلت مجموعة أسماء. وليس بينها الأسم الذي...

قاطعه بسرعة:

- لا أحسبُكَ... تصدق كل هراءٍ تسمعه.

الولد يتهور - يقترب من أرض النار الخامدة. والحاج بعقله الكبير. يبعده بحذره... إبتعد ياعلي. فالأرض التي تدوس عليها بقدمين عاريتين ليست رماداً، كلها، إن تحتها جمرات نار. فحذار ياعلي... حذار... يا ولدي.

إسترسل علي بيقين:

- للأسف يا أبي... ليس هراء.

طائش أنت يا علي. طائش وأهوج.

إختضت. سقط قدح الشاي من يدها، خطفت المنشفة وراحت تمسح المائدة من آثاره وهي تردد: عفواً... عفواً... لكن أحداً منهما لم يحفل بها. كلاهما مندفع نحو منطقة النار بقوة شيطانية.

تساءل الأب:

- هل تحققت من الأمر؟

هذا الهدوء، الرصين، الرزين، يقتلها. إن تحته ناراً تشتعل... تتأجج. وحدها تعرف مداها وحدها التي إكتوت وتكتوي بها. وهو... هو... الأحمق الحبيب

يصبّ فوقها الزيت دون أن يرحمها.

أجاب علي برصانة:

- لقد تعلمت منك يا أبي أن لا أطلق الأحكام جزافاً. ومع هذا إذا كنت في شك اسأل البيوت التي تتسكع فيها. ولكنَ لاتسأل عن وفاء. إسأل عن بدور. أو عواطف... أو أحلام... أو...

وإندفعت الأم تقاطعه. نافذة الصبر:

- ما الذي تقول يا علي؟ لماذا؟ لماذا ياحاج؟

وتوجهت نحو الحاج... لكن علي هو الذي بادر:

- لماذا؟ تسألين... لماذا؟

وهمَّت أن تزعق به... لا. لست أنت من أسأل. أسأله هو. إن صمته المريب هذا يخيفني إنه يأكل نفسه من الداخل انا أعرفه. ليكفَّ... ويتكلم.

- لأنها هكذا... إعتادت منذ كانت صغيرة على سلب الناس أشياءهم لم تخرج من بيت دخلته إلا ومعها شيء منه.

- هم... كانوا يعطونها.

لم يكن جواب الأب دفاعاً عنها. ولا تبرئة لها. فهو قبل غيره إكتشف سرقاتها. ولكنه العناد الذي يركبه...حسب:

- ذلك ماكانت تزعمه هي... أما الحقيقة... فشيء آخر.

إلتهب وجه الأب. لقد بدأ الغيظ المكتوم يطفح على وجهه ويصبغه بذلك اللون الدموي المرعب.

- الحقيقة هي الحقيقة. ولن تكون شيئاً آخر إلاّ حين تنظر إليها بعين الحقد.

- الحقد؟ ماذا تقول يا حاج؟

صاحت الأم مستنكرة بشدة... بينما ظل الحاج في هدوئه الجيّاش بالغضب.

- إبنك يا زينب تكلّس عند حادثه النهر. عند الأوهام التي خلقها لنفسه... حول حادثة النهر.

- لقد كنت عند النهر ورأيت كل شيء بعيني. ولم تكن عيني - إذذاك على الأقل. عيناً حاقدة.

توسلت إليه أمه:

- إهدأ... يا علي... إهدأ يا إبني.

ولكن علي ظل يواصل:

- وإذا كانت حينذاك طفلة... لاتعي ماتفعل. ولا أحد يحملها جريرة أفعالها. فأنها لم تعد كذلك الآن. ولا بد أن تدفع ثمن كل ماتفعله... نادها يا أبي. نادها أواجهها بكل الحقائق في حضورك وحضور أمي...

أحسَّ الأب بالحصار حوله يضيق... وهو يكاد يختنق... والصمت لم يعد ملاذاً... آمناً... ولا حصناً منيعاً.

- تعرف جيداً إنها تنفر من وجودك. ولا تأتي مادمت هنا.

وهاجت الأم قبل علي:

- ومن تكون هي، يا حاج، حتى تنفر من وجود إبني في بيته؟

شعر علي بأن أباه قد ضربه بفأسه ضربة قاسية فوق رأسه. شقت في روحه جرحاً لايندمل. وفي كيانه شرخاً لايلتئم... قال بمرارة...

- قد تكون هي صاحبة البيت، يا أمي، ويتوجب عليَّ أن الغي وجودي وأترك لها بيتي تعيث فيه فساداً... مثلما تفعل في...

- علي.

صرخ الأب. ومع الصرخة المدوية. إرتفعت كفّهُ العريضة القوية. ذات الأصابع المتشققة والمتحجرة معاً. أمسكت بها الأم بسرعة. قبلما تهوى على وجه إبنها فتفتته. وهي تزعق خارجة عن طورها:

- حجي شكر. هل جُننت؟

وتخشّبت الكفّ الهائلة. الخشنة. كفّ البنّاء العتيد التي يقول كل من عمل معه إنه كثيراً مايستخدمها في كسر الطابوق والصخر بدل الفأس.

بَهُتَ علي. غارت الدماء من وجهه. تيبس في مكانه. لم يكن خائفاً. ولكن مصعوقاً. غير مصدق ماجرى. ثم أخذ يرتجف وهو يصر على نواجذه وقد إنعقد لسانه ولا يدري ماذا يقول ولا ماذا يفعل. أطبق على علبة سجائره بأصابع متشنجة وراح يسحقها. وهو يسدد نحو أبيه نظرة مشحونة بالحنق.

تركها مفرومة على المنضدة. وتوجه بخطوات ثابتة نحو الباب دون أن يفتح فاه بكلمة.

تركت الأم اليد المرفوعة تسقط وهرعت الى أبنها. دامعة العينين.

- علي... علي يا ولدي.

ولكن علي كان قد أغلق الباب خلفه، وحين همَّت بفتحه. زمجر الحاج شكر دون أن يلتفت نحوها:

- دعيه!

تصلّبت في مكانها. يدها مطبقة على مقبض الباب. عينها مصوبة على الكائن الملفوف بالسواد. وقلبها هارب مع الولد الهارب من البيت. من غير أن تدري الى أين.

- لقد ضاعت مني البنت يا شكر. ولن أدع الولد يضيع. ولتبق وحدك معها في البيت. وعسى أن لاتطردك مثلما تطردنا... يا... يا ظالم.

وقبلما تدير مقبض الباب. كانت الكّف ذات الأصابع المتحجرة قابضة على ذراعها. وصوت أشبه بالزئير يصرخ بها:

- تعالى.

جرّها بقوة وأجلسها على مقعدها. صاحت الأم:

- فكَّ قبضتك عني... أنت تسحق عظامي.

وتراخت القبضة. بإحساس شديد بالألم وبنبرة مشبعة بالأسى قال:

- حتى... أنت... يا زينب.

- حتى أنا؟ ماذا تقصد يا حاج؟ وماذا فعلت أنا غير طاعتك حتى في أبشع أخطائك. منعتني عن ذكر أبنتي الوحيدة فأطعتك. أمرتني أن أصبح خادمة لمعدومة الأصل تلك. فصبرت. قلت لك يا حاج. البنت قد خرجت عن الطريق نهرتني. وسكت. فماذا فعلت حتى تحرقني بنار قسوتك. وماذا فعل ابنك غير قول الحق. حتى تطرده في مثل هذا الجو الذي لايطرد فيه الكلب.

- أنا لم أطرده... هو الذي...

- قم يا حاج. تعوذ بالله من شيطان غضبك. وقم الى إبنك لاتدعه يترك البيت من لك سواه ومن له سواك إنه عضيدك وسندك.

ولكن الحاج لم يتحرك. ظل جامداً في مكانه. لايتزحزح. مثل صخرة كبيرة مغطاة بجلد أسود سميك لايخترقه رجاء ولا يؤثر فيه توسل.

- آه ...يا حاج لم تكن قط بهذه القسوة. فماذا دهاك. كيف تحجّر قلبك الى هذا الحد. وبات أقسى من صخورك وأحجارك؟!

أخذت الصخرة تئن بصمت.

- هيا ياحاج... هيا... لاتفرّط بإبنك من أجل مَنْ لاتساوي قلامة ظفر من أظفاره العشرين.

- أرجوك يا زينب... أرجوك... كفي عن ذِّر أملاحك فوق جروحي.

- جروحك؟ إذن فأنت تعرف. تعرف وتنكر. وتعرف وتعاند... لماذا ياحاج، ما الذي بينك وبينها، كيف إستعبدتك هذه القذرة على هذا النحو؟

وتصدّعت الصخرة بصرخة مزلزلة.

- إخرسي.

- لا. لن أخرس. لابد أن أعرف الحقيقة لابد أن أعرف كل شيء. لابد أن...

ولكنها خرست فعلاً. حتى قبلما تفضي إليه ببعض مايحتدم في نفسها. أخرستها صفقة الباب الخارجي القوية فقفزت الى النافذة بهلع. رأت اينها الذي ترك البيت يسير تحت المطر مهرولاً. وحقيبته الصغيرة المدلاة من عاتقه ترتطم بساقه وهو يخوض الوصول وبرك الماء. كأن أحداً يطارده. فتحت النافذة. ونادته بأعلى صوتها:

- علي... علي ولدي - إبني.

ولكن الريح وزخّات المطر. ردّت الصوت الى الداخل. وظل علي يبتعد. وإذ مرقت بجانبه سيارة اجرة ورأته يشير إليها ثم يركض خلفها. أدركت أن الأوان قد فات. وإن الولد قد راح الى حيث لاتدري. فأطلقت عويلاً حاداً متشنجاً وتكومت على نفسها غير قادرة على الوقوف.

- راح... الولد راح... ولدنا راح... يا... شكر.

إنعطف علي. بعدما فاتته السيارة ولم تستجب لأشارته، نحو اليمين، أخذ يمشي ملتصقاً. بالحائط محتمياً به من رشقات المطر التي تنشرها الرياح في كل مكان. لاح أمامه مقهى العم خدر. توجه نحوه بحماس. ولكن لم يلبث أن فتر حماسه وتوقف على بعد بضعة أمتار. سيجابهه العم خدر بالسؤال نفسه. وهذه المرة لن يستطيع. حتى أن يعده بالحل حينما يعود من القرية. فها هو يعود من غير أي حل.

إلتصق المعطف المبلل الثقيل بجسمه. ولم يعد يقيه من البرد الذي أخذ ينفذ الى عظامه. سرت في جسمه قشعريرة ولم يجد بداً من مواصلة سيره نحو المقهى. فقد كان بحاجة ماسة الى الدفء والشاي الساخن والإختلاء بنفسه بعض الوقت... ريثما يتوقف المطر أو يخف. ويجد وسيلة للوصول الى القرية. ويغرق في عمله الذي وحده يمكن أن يحفف عن روحه وطأة قسوة أبيه وتعنته. وينسيه عذابات أمه. وعجزها. وعجزه هو أيضاً... عن فعل شيء. أي شيء أزاء تلك الفاسدة المفسدة التي تسيطر على أبيه ومن خلاله ترمي الى السيطرة على البيت وعلى من فيه.

كان المقهى... نظيفاً... نظيفاً... مضاءً... كما إعتاده دائماً. مليئاً بالدفء ورائحة الشاي.

ألقى حقيبته على الأرض. نشر معطفه على متكأ المقعد الخشبي الطويل. وأخذ... يمسح وجهه ورأسه بمنديله. ولم يكد يجلس حتى أقبل العم خدر، يسبقه سعاله المتقطع جلس الى جانبه، إنكمش هو على نفسه.

- ها علي... ماذا فعلت يا ولدي؟

عاجله بالسؤال. لم يمهله أن يرتب في ذهنه جواباً... أي جواب.

- لاشيء.

أدهشته هو سرعة جوابه.

إنتصب العم خدر واقفاً.

- أنت الآخر لاتختلف عن أبيك. لقد خذلتنا يا علي ولكن نحن أهل المحلة سيكون لنا شأن آخر معها. إن وجودها في داركم إساءة لنا جميعاً ولن نسكت عليها.